مفهوم الاكتساب اللغوي

(دراسة من منظور اللسانيات الحديثة)

فاطمة جازي سعيد البقمي
ماجستير في اللسانيات التطبيقية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبد العزيز
المملكة العربية السعودية. جدة

ملخص

تعد قضية الاكتساب اللغوي من القضايا الرئيسة في الدرس اللساني، والنفسي والتربوي على حدٍ سواء؛ وكونها قضية لسانية بحته؛ فالأمر يتطلب من المختصين بالبحث في الحقل اللساني إجراء مزيدًا من البحث والدراسة حول مفهوم الاكتساب اللغوي وتاريخه. و من هنا جاءت فكرة هذا المقال؛ وهي تحري قضية (الاكتساب اللغوي). وتقديم عرضًا موجزًا عن تاريخ البحث فيها. والكشف بشكلٍ مبسط عن مفهوم الاكتساب وطبيعته في النظريات اللغوية الحديثة. وهذا من شأنه مساعدة الدارسين في التعريف بالاكتساب اللغوي في النظريات المتعلقة باللغة وتعليمها. وفهم الفروق الدقيقة بين تلك النظريات في تحديد مفهوم الاكتساب. واستغلال ذلك في وضع منهجيات حديثة تخدم مهمة تعليم اللغة الأولى[١].

الكلمات المفتاحية: الاكتساب اللغوي، السلوكية، التوليدية التحويلية، المعرفية.

[١] مقال مستل من رسالة ماجستير للباحثة، وهي بعنوان: التطور اللغوي عند الأطفال ما بين عمر الثالثة إلى الخامسة، في ضوء علم اللغة النفسي: دراسة تطبيقية في بعض الأساليب اللغوية، روضة (رياض الأطفال بدار الحافظات الحادثة عشرة بمدينة جدة) أنموذجًا.
إشراف الدكتورة: خلود صالح عثمان الصالح، الأستاذ المشارك في اللسانيات. جامعة الملك عبد العزيز. قسم اللغة العربية. المملكة العربية السعودية. جدة.

تمهيد:

تعد السمة المميزة في التكوين البشري عن سائر المخلوقات الأخرى؛ وتتمحور الدراسات الإنسانية حول اللغة في إطار علاقاتها المتشعبة بالإدراك، والوعي، والتفكير، والنفس، والمجتمع، والسلوك، والسياسة، والسلطة الأمر الذي دفع المهتمين بتلك الموضوعات إلى إجراء عدّة دراسات تتخذ من اللغة موضوع لها؛ فتباينت لذلك وجهات نظر العلماء حول مفهوم اللغة، كالفلاسفة، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، ومنظرو الحضارة وغيرهم[١]. وليس المقام هنا لعرض تباين تلك المفاهيم، إنما غرضنا من ذلك الإشارة إلى مفهوم اللغة كما عرّفها اللسانيون.

عرّف اللسانيون تبعًا للوظائف التي تؤديها في حياة الإنسان؛ فيرى فريق منهم أن اللغة أداة الاتصال البشري، ووسيلة تحقيق أغراضه التواصلية. فهي بهذا المفهوم الاتصالي عند "ستيرنبرغ Sternberg" "استخدام منظم للكلمات من أجل تحقيق الاتصال بين الناس"[٢]. وعند العالم "ليوبولد Leoopold" هي: "القدرة على الاتصال بالآخرين بما في ذلك كافة أشكال الاتصال بأنواعه مثل: الكتابة، والكلام، والعلامات، والإشارات، وتعبيرات الوجه وحتى البانتوميم (التعبير الصامت بالحركات والفن)"[٣].

ويقرر فريق آخر منهم المفهوم الاجتماعي للغة، انطلاقًا من ظاهرة اجتماعية اللغة؛ فهي تنمو بنمو مجتمعها، وتجمد بجموده، فالصبغة الاجتماعية للغة تؤدي وظيفة الانتماء والتعايش والتبادل بين المجموعات الإنسانية، ويظهر هذا المفهوم من تعريف "بلوش وتراجر Tager, Bioch" للغة بأنها: "نظام اجتماعي من الرموز المنطوقة الاعتباطية تتعاون به مجموعة اجتماعية"[٤]. وهو مضمون ما استشعره "ابن جني" قديمًا في تعريفه اللغة، بأنها: "أصوات يعبر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم"[٥].

---

[١] ينظر: مصطفى غلفان, في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها (دار الكتاب الجديدة المتحدة، ٢٠٠٨م) ١١-١٢. وسعيد الفراع، الطفل واكتساب اللغة بين البنائية والتوليدية، مجلة رؤى التربوية، العددان ٤٤- ٤٥، (ب. ت), ١٦٣.

[٢] عدنان يوسف العتوم، علم النفس المعرفي، النظرية والتطبيق، (عمّان: دار المسيرة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م)، ٢٩٠.

[٣] المنجي سرحان، اللغة عند الطفل تطورها ومشكلاتها، عالم الكتاب، العدد ٣٦، ٨٨.

[٤] جون ليونز، اللغة وعلم اللغة، ترجمة: مصطفى التوني، (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٧م)، ٥.

[٥] أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، ترجمة: الشربيني شريدة، (القاهرة: دار الحديث ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م)، ٧٦.

ومن أبرز المفاهيم التي فُسرت بها اللغة، وحظيت باهتمام الدراسات الحديثة اليوم مفهوم الإبداع اللغوي عند "تشومسكي Chomsky" فاللغة "مجموعة من الجمل المحدودة، أو غير المحدودة، ويمكن بناؤها من مجموعة محددة من العناصر"[١]. ورغم أن "تشومسكي Chomsky" غيّب في هذا التعريف المفهومين السابقين الاتصالي والاجتماعي للغة، إلا أنه أكّد على أن اللغة تتألف من عناصر محددة تساعد على الإبداع غير المحدود، فمثلاً إذا كانت الأنماط اللغوية يُمكن حصرها في ثلاثة عناصر، هي: (فعل، وفاعل، ومفعول به) فالجمل التي يُمكن أن تولّد من هذه العناصر لا يُمكن حصرها، فهي غير محدودة[٢].

تاريخ البحث في الاكتساب اللغوي:

يعد الاكتساب اللغوي من أهم القضايا التي تصدى للبحث عنها كثير من القدماء من العلماء، والفلاسفة، والمتكلمين.. إلخ. وهو ما تنبّه إليه اللسانيون فيما بعد وعلماء النفس، والتربية، والاجتماع وغيرهم ممن تصلهم باللغة صلات عدة[٣]. فحظيت تلك القضية باهتمام المتخصصين اللسانيين؛ إذ اتجهت عنايتهم إلى البحث عن كيفية اكتساب الإنسان اللغة، والكشف عن التطورات اللغوية التي يمر بها هذا الطفل منذ الولادة عبر مراحل النمو اللغوي[٤]. ومن أوجه تلك العناية محاولتهم تحديد مفهوم الاكتساب اللغوي بشكلٍ عام – فعرفوه في صورته العامة بأنه: "العمليّة التي يُطور فيها الإنسان قدرات لغوية بنفسه وهي عملية مستمرة متتابعة مع النضج"[٥]، فالإنسان لديه قابلية عقلية لاكتساب أي لغة يسمعها عندما يكون صغيرًا[٦]. كما حددوا مفهوم اكتساب الطفل اللغة ، فقد

---

[١]لوينز: مرجع سابق، ٩ ، ورشدي أحمد طعيمة، المهارات اللغوية، مستوياتها، تدريسها، صعوباتها، (دار الفكر العربي، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م)، ١٥١.

[٢]المرجع السابق، ١٥١- ١٥٢.

[3]See: Matthew J. Traxler and Morton Ann Gernsbacher, Psycholinguistics, second edition. (Davis, USA. University of California, University of Wisconsin. 2006) 2-3.

وينظر: دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ترجمة عبده الراجحي، على شعبان، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٤م)، ٥٧.

[٤]ينظر:، سامي رزق، اكتساب الطفل للغة الأم من منظور اللسانيات الحديثة، (مكتبة القاهرة الكبرى، ١٠/ يناير ١٩٩م)، ١٥٧.

[٥]بن فريجة الجيلاني أبو اللباس، لغة الطفل ما قبل المدرسة بين الاكتساب والتواصل "مقاربة لسانية"، (عمّان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٩١٥م، ٤٤.

[٦]المرجع السابق.

عرّفه اللسانيون بأنه: "دراسة المراحل المختلفة التي يمر بها الطفل منذ لحظة الميلاد حتى يتحكم في لغة المجتمع الذي وُلِد فيه، ويستعملها غالبًا حتى يصل إلى السنة الرابعة أو الخامسة من عمره على الأكثر"[١].

ولعله من المفيد قبل البدء في مناقشة مفهوم (الاكتساب اللغوي)، ووصفه كما جاء في النظريات الغربية، أن نلقي بالأضواء على تاريخ البحث في تلك القضية، فقد كانت موضع تحرّي ونقاش لدى كثير من الباحثين والفلاسفة منذ قرون كما أسلفنا؛ إذ ارتبط مفهومها منذ زمنٍ طويل بالمناقشات حول أصل اللغات والإنسان[٢]. ولا زالت النظريات قائمة ومستمرة لفهم تلك القضية وتطورها عند الإنسان.

لعل بذرة الاهتمام الأولى بدراسة الاكتساب اللغوي كانت قبل ميلاد سيدنا عيسى-عليه السلام- بسبعة قرون، تقريبًا؛ في محاولة أحد ملوك الفراعنة ويُدعى "بسميتيشيس" برهنته على أن اللغة المصرية الأصل في اللغات، فأمر بإجراء تجربته على طفلين حديثيّ الولادة، وذلك بعزلهما في مأوى معيشي آمن يضمن به استمرار حياتهما، بعيدًا عن أي محيط لغوي، بهدف ملاحظة ورصد أول ما ينطقان به من الكلام، وفي ظل انتظار الملك نتيجة ما أمر به بدا له عكس ما كان يتوقعه؛ إذ نطق الطفلان بأول كلمة – رغم عزلهما- وهي "بيكوس" بلغة الفريجية- وهي إحدى اللغات القديمة – والتي تعني "خبز" ليتبين للملك أن اللغة المصرية ليست الأصل في الكلام، ولا الأقدم في اللغات[٣].

لم تقف عناية البحث القديم بظاهرة الاكتساب اللغوي عند ملاحظة أول ما يتفوّه به الطفل من الكلمات، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك وهو البحث في الصراخات المبكرة عند الرُضع؛ فعلى سبيل المثال: اعتقد الرومان أن صراخ الطفل الرضيع يؤدي رسائل لغوية هامة، بل حاول بعضهم تتبع منبع تلك الأصوات، واعتبرها نوع من الهبات الروحانية. وبحث أفلاطون في آلية التصويت الفطري عن الأطفال مُلاحظًا أن أصوات الرضيع في الأشهر الأولى تمثل أول تمييز اتصالي لدى الطفل؛ إذ أن هذه الأصوات على ارتباطٍ غير

---

[١] حلمي خليل، في اللسانيات التطبيقية، (دار المعرفة الجامعية، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م)، ١٢٢.

[٢] ينظر: أوزوالد ديكرو، وجانة ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: منذر عياشي، ط ٣، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٣م)، ٤٥٦.

[٣] ينظر: المرجع السابق، ٤٥٦، وإبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ط٥، (مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤م) ١٣-١٤، ويحيى علاق، أهمية السماع في اكتساب اللغة وفي تعلمها قبل التمدرس، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر ٢٠١٠-٢٠١١م، ٢٩.

مباشر وخفي بحاجات الطفل؛ أي أنه عند شعور الرضيع بالراحة يصرخ صراخًا يعبر به عن الارتياح أو ما يسمّيه علماء اللغة النفسي اليوم بـ(المناغاة)، في حين أنه إذا شعُر بالجوع أو الملل يُصدر صراخ الانزعاج[١].

في أعقاب ذلك بدأت محاولات البحث في اكتساب اللغة تتجه نحو الاهتمام بتفسير آلية حدوث تلك الظاهرة؛ حيث اعتنى الفلاسفة في المجتمعات القديمة بالكيفية التي يكتسب بها البشر ملكة فهم اللغة وإنتاجها، وحاولوا تفسير ذلك بأن قدرة المرء اللغوية جزء من قدرته المعرفية العامة المزود بها عقله[٢]. وفي هذا إشارة إلى ما ذهب إليه عالم النفس السويسري "بياجيه Piaget" من أن اللغة عملية معرفية؛ تحدث داخل (النظام المعرفي) المزود به العقل الإنساني"[٣].

خطت اجتهادات الفلاسفة في وصف اكتساب اللغة خطوة واسعة؛ تجلّت في محاولاتهم القديمة لفهم اكتساب المفاهيم، فعلى سبيل المثال: أشارت ملاحظات أفلاطون في منهجية الاكتساب اللغوي إلى أن اكتساب المعاني إنما يتم بشكل فطري[٤]. وقدّم السنسكريتيون مناقشات عدّة حول طبيعة القدرة البشرية على استيعاب المعاني لأكثر من اثني عشر قرنًا- سعيًا في تحديد نوع هذه القدرة فيما إذا كانت فطرية، أم مكتسبة[٥].

في حين يمكننا رصد الخطوة الحقيقية في هذا المجال في ضوء اجتهادات العلماء بملاحظة لغة الطفل ورصد تطورها؛ وذلك منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، فقد أصدر الفيلسوف الألماني "تيدمان Tedman" عام ١٧٨٧م تسجيل خاص بالتصور النفسي واللغوي لابنه الصغير[٦]. تلا ذلك إصدار بعض الباحثين لعددٍ من المذكرات الأبوية الدقيقة الخاصة بلغة أبناءهم، من أمثال: ليستيرن Listerine"؛ فقد نشر مذكراته بالألمانية، وسجل "غراغور Gregopire" تقاريره بالفرنسية، وأصدر "ليوبولد Leopold"،

---

(١) ينظر: توماس سكوفل، علم اللغة النفسي، ترجمة: عبد الرحمن العبدان (الرياض: مكتبة الملك فهو الوطنية، ١٤٢٤هـ)، ٢٤- ٢٦.

(٢) ينظر: الموسوعة الحرة، متاح على الشبكة العنكبوتية. (تاريخ اكتساب اللغة) موقع: https://ar.wikipedia.org/wiki/ .

(٣) ينظر: رافع النصير الزغلول، وعماد عبد الرحيم الزغلول، علم النفس المعرفي، (الناشر: الشروق، (ب.ت))، ٢٥٢.

(٤) (تاريخ اكتساب اللغة) موقع: https://ar.wikipedia.org/wiki/ .مرجع سابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) ينظر: براون، مرجع سابق،٣٦.

ملاحظاته باللغة الإنجليزية[١]. وقد سعت محاولات هؤلاء جميعًا إلى رصد وتتبع التطورات اللغوية لأبنائهم. إلى جانب ماحفظه علماء النفس في القرن التاسع عشر ميلادي من تسجيلات يومية لأحاديث أطفالهم، راصدين من خلالها مراحل النمو اللغوي لدى الأطفال[٢].

ظل البحث في هذا المجال في صورة التقارير الأبوية قرابة القرن والنصف؛ إذ لم يُسجل أي تطور ملموس في دراسة قضية الاكتساب اللغوي، ولم يلتفت الباحثون لتحليل لغة الطفل ودراستها بطريقة علمية منظمة، إلا في النصف الثاني من هذا القرن[٣]؛ إذ توالت دراسات النمو اللغوي عند الطفل خاصة بعد الثلاثينيات، وبدأت تلك الدراسات تتجه نحو التطبيق الميداني على عينات محدودة من الأطفال في سن ما قبل المدرسة. من ذلك محاولة "سميث Smith" اختبار مفردات لغة الطفل، ودراسة الجانب التركيبي من لغته وتحليله. وتقديم "مكارثي McCarthy" دراسة في الاستجابة اللفظية المترابطة عند الأطفال[٤].

قطعت دراسات الاكتساب اللغوي بونًا شاسعًا في العشرين سنة الأخيرة، فقد وصلت تلك الدراسات طور البحث العلمي العميق، والملاحظة التجريبية الدقيقة[٥]. وسطعت قضية الاكتساب اللغوي في سماء اللسانيات النفسية (Psycholinguistics)[٦]. وتوج هذا التطور بتقديم نظريات علمية جديدة في هذا الحقل، عالجت مفهوم اكتساب اللغة بشكل أكثر دقة وعلمية، وسنقف في هذه الدراسة على أهم تلك النظريات التي ساهمت في تفسير ظاهرة الاكتساب اللغوي، وشكّلت فيما بعد مرجعية علميّة للعديد من الدراسات اللسانية والنفسية.

مفهوم الاكتساب اللغوي في النظريات العلمية:

شكّلت العناية بمفهوم الاكتساب ووصف آلية حدوثه لدى العلماء النفسيين واللسانيين باعثًا قويًا لطرح تفسيرات علمية مقنعة لفهم السلوك اللغوي، والكيفية التي يتعلم بها البشر اللغة، وتقديم تلك التفسيرات في نظريات علمية

---

[١]ينظر: ديكرو، وسشايفر، مرجع سابق، ٤٥٦.
[٢]ينظر: جيان بيركو جليسون، علم اللغة النفسي، ترجمة: هند نصارا المهيني، (الكويت: آفاق للنشر والتوزيع. ٢٠١٢م)،٤٨٤.
[٣]ينظر: براون، مرجع سابق،٣٥.
[٤]ينظر: كلاس، جورج، الألسنية ولغة الطفل العربي، ط٢، (بيروت: ١٩٨١م)، ٤٢.
[٥]ينظر: براون، مرجع سابق،٣٥.
[٦]ينظر: ديكرو، وسشايفر، مرجع سابق، ٤٥٦.

يمكن من خلالها احتواء تلك القضية وفهمها بشكل علمي دقيق يقوم على الملاحظة والتجريب. ونعرض هنا أبرز تلك النظريات على النحو الآتي:

١- مفهوم الاكتساب اللغوي في النظريات السلوكية:

لعل البداية العلمية الجادة للأبحاث في هذا الحقل كانت في أوائل القرن العشرين؛ وقد تزامن مع تلك البدايات انطلاق النظرية السلوكية، وما قدمته من مبادرة في أوساط البحث العلمي من لفت الانتباه لأهمية موضوع اللغة، ومحاولة فهم الكيفية التي يكتسب بها البشر تلك المهارة. وقد مثّل كلاً من "سكينر Skiner"، و"واطسون Watson" أبرز أقطاب النظرية السلوكية؛ لذا يمكننا تلمّس مضامين تلك النظرية في إطار ما قدماه من أعمال للعناية بمفهوم السلوك اللغوي وتفسيره.

عالج "سكينر Skiner" طبيعة السلوك اللغوي، في إطار تكوين العادات، فيرى أن اللغة مهارة يُمكن تعلمها بالتكرار والمران كأي مهارة سلوكية أخرى. وانحصرت تلك المعالجة في إطار ثلاثية (مثير- استجابة – تعزيز)؛ ويعني ذلك أن الطفل يتعلم اللغة حال تعرضه لمثير خارجي يستجيب من خلاله لممارسة العملية الكلامية، ثم يتلقى عليها دعمًا من الوالدين بالابتسام، أو الاحتضان، أو التقبيل. فتتجلى مهارة اللغة عند الطفل بتكرار ما لقي عليه الإثابة والاستحسان، وتجاهل ما جعله عرضة للعقاب ونحوه. وعلى هذا الأساس تسير عملية اكتساب اللغة وفق المفهوم السلوكي[١].

سار "واطسون Watson" في الاتجاه نفسه في تفسير السلوك اللغوي، فاعتبر الكلام سلوك إنساني مثل أي سلوك آخر يتم تعلمه عن طريق التدريب والمحاكاة. كما يرى "واطسون Watson" أن الذخيرة اللفظية التي يمتلكها الطفل، قد تكونت منذ بداية صدور الأصوات التلقائية في الأشهر الأولى من عمره، ثم تطورت بأثر التعزيز الذي يتلقاه الطفل من البيئة الاجتماعية؛ إذ يسعى الأهل لتقريب الأصوات التلقائية من الأصوات اللغوية أو الفونيمات، وما

---

[١]ينظر: الغالي أحراشو، العلاقة "أم – طفل" وسيرورة اكتساب اللغة، مجلة العلوم التربوية والنفسية، قسم علم النفس- كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز بفاس، المغرب، المجلد٤، العدد ٢، يونيو ٢٠٠٣م، ١٦، وميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسة لغوية اجتماعية نفسية مع مقاربة تراثية، (دار العلم للملايين، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣م)، ٧١-٧٣، ومحمد عماد الدين إسماعيل، الأطفال مرآة المجتمع، النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنواته التكوينية، (الكويت: عالم المعرفة، مارس ١٩٨٩م)، ١٠٧- ١٠٨. ومحمد منير مرسي، دراسة عن المدرسة السلوكية ومبادئها التربوية، مجلة التربية، قطر، العدد ٧٢، ١٩٨٥م.

أن يقترب الصوت في الواقع من الكلمة حتى يتم ربطهما بالشيء، أو بالفعل عبر عملية استبدال الشيء بالصوت أو بالكلمة. وعلى هذا النحو تسير عملية اكتساب الطفل اللغة شيئًا فشيئًا[١].

فللغة من منظور النظرية السلوكية: "مهارة ينمو وجودها لدى الفرد عن طريق المحاولة والخطأ، ويتم تدعيمها عن طريق التعزيز والمكافأة"[٢]. وتتعدد صور تعزيز الأطفال على ممارسة النشاط اللساني وتطوره، من ذلك التأييد الاجتماعي، والتقبيل، والاحتضان، والابتسامة، وغيرها. وخلاصة ما سبق، إن التقليد والمحاكاة الفكرة الأساسية الموجهة للمنهج السلوكي في تفسير مفهوم الاكتساب اللغوي.

قدمت النظرية السلوكية بمبادئ التعلم التي نادت بها (كالمحاكاة، والتكرار، والتعزيز) دورًا مهمًا في وصف اكتساب السلوك اللغوي وتطوره، وهو ما دفع بعض الباحثين إلى اعتبار هذا الدور إرهاصة أولى في نشأة اللسانيات النفسية[٣]، إلا أنه على الرغم من ذلك يظل هذا الدور محدودًا وقاصرًا عن التفسير الكامل لعملية الاكتساب اللغوي. ويبقى المجال مفتوحًا أمام النظريات الأخرى في تقديم تفسيرات أكثر دقة وإقناعًا.

٢- مفهوم الاكتساب اللغوي في النظرية التحويلية:

برزت النظرية التحويلية التوليدية على يد اللغوي الأمريكي المعاصر "نعوم تشومسكي Noam Chomsky". أتى مصطلح التوليدية من تأكيد التوليديين على أن اكتساب اللغة قدرة عقلية مغروسة في الإنسان عند الولادة[٤]. وأن الإنسان يولد مزود بجهاز داخلي يقوده لاكتساب اللغة وتطويرها؛ أي إلى فهم لغة المحيطين به وإدراكها، مما يساعده على إنتاجها بعد عملية الاستيعاب الداخلي لها[٥].

---

[١]ينظر: زكريا: مرجع سابق، ٧٣.

[٢]المرجع السابق، ٧٤- ٧٥، ويوسف جمعة، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، (الكويت: عالم المعرفة، يناير ١٩٩٠م)، ٩٩.

[٣]ينظر: خلود الصالح، اللسانيات النفسية بين التأسيس والمستقبل: دراسة في اكتساب اللغة الأولى، مجلة التواصل: مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باجي مختار- عنابة٢٠١٦م، ٤.

[4]See: Noam Chomsky, Aspects of The Theory of Syntax, the Massachusetts Institute of Technology, 199.

[5]Ibid, 199.

انتقد "تشومسكي Chomsky" المنهج السلوكي؛ وعدم قدرته على تفسير طبيعة اللغة. وقدم "Chomsky تفسيره لعملية الاكتساب على أساس وجود نماذج أوليّة للصياغة اللغوية؛ أي أن الطفل يُولد مسبقًا بنماذج تركيبية لغوية، يستطيع بها تحديد القواعد النحوية في أي لغة يمكن أن ينشأ فيها[١]. مما يعني وجود عموميات في التركيبات اللغوية تشترك فيها جميع اللغات كتركيب الجمل من أسماء وأفعال. يتشكل من هذه العموميات النماذج الأولية، وسُميت أولية؛ إذ أنها قدرة معرفية مغروسة في الطفل تمكنه من استيعاب الجمل التي يسمعها وتحليلها، ثم إعادة تركيبها وفق القواعد النحوية للغته الأم، فإنتاج جمل وتراكيب لم تُسمع من قبل[٢]. وهذه القدرة التي تحوي النماذج العامة يتحكم فيها جهاز وهمي يُتصور وجوده في الدماغ البشري، سمّاه "تشومسكي Chomsky" (جهاز اكتساب اللغة) (Language Acquisition Device)[٣].

ساهمت النظرية التوليدية التحويلية بدورٍ كبير في تفسير طبيعة الاكتساب ووصفه؛ ويتجلّى هذا الدور فيما يعرف بـ"القواعد التحويلية" للغة. وصف "تشومسكي Chomsky" الجمل اللغوية وجعل له مستويان من البُنى والتراكيب، وهما:

البنية العميقة: وهي البنية التي اشتقت فيها الجملة أساسًا، والبنية السطحية: وهي البنية التي تبدو فيها الجملة بصورتها الحالية، ويتحدد المعنى من خلال العلاقة بين البنتين، وتتحول الجمل من بنائها العميق إلى السطحي وفق قوانين تحويلية إجبارية أو اختيارية، ويطلق على هذه العلاقة تحويلاً، لذلك سُمي النحو في ضوء هذه النظرية بالنحو التحويلي[٤]. ولهذا يؤمن "تشومسكي

---

(1)Chomsky, Aspects of the Theory of Syntax, Op. Cit, 199.
وينظر: إسماعيل، مرجع سابق، ١٠٨.

(2)See: Chomsky, Aspects of the Theory of Syntax, Op. Cit, 199-100

(3)See: Trevor A. Harley, The Psychology of Language Form Data to Theory, Second Edition, Psychology press Ltd, 2001, 108.

وينظر: براون، مرجع سابق، ٣٩.

(4)See: Chomsky, Aspects of the Theory of Synax, Op. Cit. 103.
وينظر: فاخوري، اللسانية التوليدية والتحويلية، ط٢، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٨م)، ١٢، ومحمد علي الخولي، مدخل إلى علم اللغة، (دار الفلاح للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م)، ٧٨.

Chomsky" بأن التشابه في اللغات يحدث في المستوى العميق، بينما يكون الاختلاف بينها في المستوى السطحي. وأن الأطفال لديهم مجموعة من القواعد الداخلية تسمح لهم بالتنقل من المستوى العميق إلى المستوى السطحي، والعكس صحيح[١].

كما يتجلى دور النظرية التوليدية في تأكيد "تشومسكي Chomsky" وأتباعه على سِمة الإبداعية للغة، مما يعني أن كل ممارس للغة لديه قدرة ذهنية انطلاقًا من نماذج لغوية محدودة على إنتاج وفهم ما لا حصر له من الجمل، والحكم عليها من حيث الصحة والخطأ، ولو لم يسمعها، أو يتدرّب على استعمالها من قبل[٢].

فاللغة من المنظور التوليدي، صفة بيولوجية ملازمة للإنسان، يتميز بها عن غيره من الكائنات، ومهارة مفتوحة النهايات؛ لأن أي إنسان يستطيع استخدامها يمكنه إنتاج وفهم جمل لم يُسبق له استخدامها أو سماعها من قبل.

ويمكننا هنا عقد مقارنة بسيطة بين النظريتين: السلوكية والتحويلية، يوجد تعارضًا في الأساس الذي بنى عليه أصحاب كل نظرية رأيهم في تفسير طبيعة اللغة. فقد اتخذت النظرية السلوكية الطابع التعلمي؛ إذ ترى أن الطفل يولد كـ"صفحة بيضاء" لا تحوي شيئًا عن اللغة، وتبقى بيئة الطفل هي المعوّل عليه في تشكّل لغته، وصياغة أفكاره بطرق متنوعة من مبادئ التعلّم العام كالمحاكاة، والتكرار، والتعزيز. في حين اتخذت النظرية التوليدية الطابع الفطري؛ فترى أن الطفل يُولد باستعداد قبلي لاكتساب مهارة اللغة، يتمثل في النماذج الأولية المحكومة بـ(جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition Device). ويفسّر بعض الباحثين هذا التعارض بين النظريتين باندفاع أصحاب كل نظرية إلى بناء وجهة نظرهم اتكاءً على انتقاداتهم لأصحاب النظرية الأخرى، وذلك لاتخاذهم موقفًا تنافسيًّا[٣].

---

[١]ينظر: وجيه المرسي، نظرية اكتساب اللغة وتعلمها، الموقع التربوي للدكتور: وجيه المرسي، نشر في ٢ أبريل ٢٠١٢م، متاح على موقع:
http://kenanaonline.com/users/wageehelmorssi/posts/402215.

[2]See: Chomsky, Aspects of the Theory of Syntax, Op. Cit.199-103.

وينظر: فاخوري، مرجع سابق، ٣٦، والفراع، مرجع سابق، ١٦٨.

[٣]ينظر: سهير محمد سلامة، علم نفس اللغة، (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٦م، ١٤٨.

٣- مفهوم الاكتساب اللغوي في النظرية المعرفية:

ترتكز هذه النظرية على أساس الموازنة بين المنهجين السلوكي والتوليدي في تفسير الاكتساب اللغوي، ويقود الرأي في هذه النظرية العالم السويسري "بياجيه Piaget"، وتقوم فكرة الموازنة على معارضة "تشومسكي Chomsky" في وجود نماذج موروثة تساعد على اكتساب اللغة وتعلّمها. وفي عدم الاتفاق مع نظرية التعلّم من أن اللغة تكتسب عن طريق التكرار والمران والتعزيز لتعبيرات معينة ينطق بها الأطفال في سياقات لغوية مختلفة(١).

تسعى هذه النظرية إلى الارتقاء بالكفاءة اللغوية كنتيجة للتفاعل بين الطفل وبيئته؛ حيث يرى "بياجيه Piaget" أن اكتساب اللغة ليس عملية تشريطية بقدر ما هو وظيفة إبداعية؛ مما يعني أنه رغم اكتساب الطفل للأسماء والأفعال في وقت مبكر نتيجة التقليدي والمحاكاة، وممارسة أدائها في صورة تراكيب لغوية، إلا أن عملية الفهم والأداء لا تكتسب إلا بناءً على ترتيب داخلي يبدأ أوليّ ثم يعاد تنظيمه بناءً على تفاعل الطفل مع البيئة الخارجية. وفي هذا إشارة إلى إيمان "بياجيه Piaget" بوجود الاستعداد القبلي لاكتساب اللغة عند الأطفال، المسئول عن التعامل مع الرموز اللغوية المعبِّرة عن مفاهيم تنشأ من خلال تفاعل الطفل مع البيئة منذ مرحلة النمو الحسي الحركي(٢).

وخلاصة ما سبق؛ إن جوهر النظرية المعرفية كما يعترف "بياجيه Piaget" ضرورة التوازن في تفسير طبيعة الاكتساب اللغوي؛ إذ يهتم بالعامل الداخلي المتمثل في الاستعداد القبلي الموجود لدى الطفل لاكتساب اللغة، وفي الوقت نفسيه يؤمن بدور العامل الخارجي، والمتمثل في البيئة المحيطة بالطفل(٣).

من مبادئ النظرية المعرفية أن النمو المعرفي مظهر نمائي سابق على النمو اللغوي؛ مما يعني أنه لا يمكن استخدام اللغة ما لم يكن هناك عمليات ذهنية تحدث داخل العقل الإنساني؛ لأن هذا العمل الذهني هو الذي يسمح باستغلال أداة اللغة وتوظيفها بشكلٍ سليم في العملية التواصلية. وبالمقابل، فإن

---

(١)ينظر: علاق، مرجع سابق، ٣٧.

(٢)ينظر: رزق، مرجع سابق، ١٦٣، وجمعة، مرجع سابق ١٠٤، وعلاق، مرجع سابق، ٣٦.

(٣)ينظر: شارل، بوتون، في اللسانيات التطبيقية، ترجمة: قاسم مقداد، محمد رياض، (دمشق: دار الوسيم)، ١٦، والخولي، مرجع سابق،٦٩.

اللغة شرط ضروري لاكتمال المراحل النهائية من التطور المعرفي، وبعبارة أخرى، فإن "بياجيه Piaget" يُخضع الجانب اللغوي للجانب المعرفي[١].

ساهمت أبحاث عدة في بلورة رؤية هذه النظرية، فقد قدم "سلوبين Slobin" دراسة في تحري المراحل التطورية التي يجتازها الأطفال في اكتساب اللغة الأولى، وأجرى دراسته على عددٍ كبيرٍ من الأطفال الناطقين بلغات مختلفة تجاوز عددها عشرين لغة، منها الألمانية، والصينية، واليابانية، وغيرها. وقد أظهرت نتائج هذه الدراسة أن الأطفال يتشابهون في آلية اكتسابهم للغة الأولى، وبخاصة في تراكيب النفي، والاستفهام، وظاهرة التقديم والتأخير. كما أسفرت نتائج الدراسة عن أن الجانب الدلالي هو القانون العام المسئول عن تحديد مسار الاكتساب اللغوي وليس الجانب البنائي[٢].

إن نظرية المعرفية تجمع بين ما هو بيولوجي وما هو سلوكي في تفسير السلوك اللغوي، حيث يرفض "بياجيه Piaget" من جهة، الهيمنة المطلقة للبيئة وحدها في تشكيل اللغة وتطويرها، كما نادت النظرية السلوكية، ومن جهة ثانية، يرفض القول بالبنيات المعرفية المعدّة سلفًا، كما رأت النظرية التوليدية[٣].

لم تقف العناية بمفهوم الاكتساب اللغوي ودراسته عند اجتهاد أصحاب تلك النظريات فحسب؛ وإنما حاول بعض الباحثين الملائمة بين وجهات النظر في تلك النظريات توفيقًا بينها لبناء موقف تكاملي في تفسير السلوك اللغوي[٤]، وفي هذا الصدد يقول جمعة يوسف: "لم يثبت إلى الآن أن منحى معين أو نظرية نجحت بمفردها في تفسير السلوك اللغوي دون نقاط ضعف أو قصور، ولكي نتكلم أو نكتسب اللغة ونتقنها لابد من استعداد عصبي ولادي يعمل كأساس تبنى عليه هذه المهارة، كما أنه لا يمكّن إنكار دور البيئة وما تقدمه للطفل من تنبيهات مختلفة خلال اكتساب اللغة، وتقديم مثيرات اجتماعية كلامية ونماذج يمكّن محاكاتها"[٥].

---

[١] ينظر: بسام بركة، اللغة والفكر بين علم النفس وعلم اللسانية، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، لبنان، العدد ١٨، ١٩، والخولي، مرجع سابق ٦٩، وزكريا، مرجع سابق،٨١.

[٢] ينظر: عبد العزيز العصيلي، علم اللغة النفسي، (الرياض: مكة: مكتبة الملك فهد، ١٤٢٧هـ)، ٢٥٦.

[٣] الفراع، مرجع سابق، ١٦٦.

[٤] رزق: مرجع سابق، ١٦٦.

[٥] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، مرجع سابق، ١٠٤.

ومن خلال العرض السابق لتلك النظريات، نرى أنه على الرغم من أن كل نظرية قد ركّزت بدورها على بُعد معين في اكتساب الطفل اللغة وتطورها، إلا أن النظرية التوليدية التحويلية، شكلت نقطة تحوّل هامة في تاريخ بحث اكتساب اللغة؛ لأنها استطاعت أن تتجاوز التصور السلوكي الذي بدا عاجزًا عن تفسير الصفة الإبداعية للغة، ممثلاً في العدد اللامتناهي من الجمل التي يستطيع أي طفل صغير إنتاجها وفهمها. هذا بالإضافة إلى اكتشاف التوليديين للطاقة الذهنية الهائلة التي يمتلكها الإنسان وحده، دون سائر الكائنات الأخرى، والتي تمكّنه بفعل الأثر البيئي من توليد وفهم جمل لا يُمكن حصرها[١].

[١] ينظر: علاق، مرجع سابق، ٣٥.

خاتمة

قدم المقال تعريفًا موجزًا بقضية الاكتساب اللغوي. مستهلاً مباحثه بإلقاء الضوء على تاريخ البحث في تلك القضية، ثم عرض أبرز النظريات اللغوية التي عالجت مفهوم الاكتساب وطبيعته. كما ركز المقال على عقد المقارنة والتقابل بين مفهوم اكتساب اللغة عند أصحاب تلك النظريات. وهذا من شأنه مساعدة الدارسين في التعريف بالاكتساب اللغوي في النظريات المتعلقة باللغة وتعليمها. وفهم الفروق الدقيقة بين مفاهيم الاكتساب في تلك النظريات. وإمكانية استغلال ذلك في وضع منهجيات حديثة تخدم مهمة تعليم اللغة الأولى.

قائمة المراجع

١- المراجع العربية:

- أحرشاو، الغالي (يونيو: ٢٠٠٣م) العلاقة "أم – طفل" وسيرورة اكتساب اللغة، مجلة العلوم التربوية والنفسية، قسم علم النفس – كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز بفاس، المجلد ٤، العدد٢.
- إسماعيل، محمد عماد الدين (مارس: ١٩٨٩م) الأطفال مرآة المجتمع، النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنواته التكوينية، الكويت، عالم المعرفة.
- أنيس، إبراهيم (١٩٨٤م) دلالة الألفاظ، ط٥، مكتبة الأنجلو المصرية.
- بركة، بسام، (ب. ت) بسام بركة، اللغة والفكر بين علم النفس وعلم اللسانية، مجلة الفكر العربي المعاصرة، مركز الإنماء القومي، لبنان، العدد ١٨- ١٩.
- بوتون، شارل (ب. ت) في اللسانيات التطبيقية، ترجمة: قاسم مقداد، محمد رياض، (دمشق: دار الوسيم).
- جليسون، جيان بيركو (٢٠١٢م) علم اللغة النفسي، ترجمة: هند نصارا المهيني، الكويت، آفاق للنشر والتوزيع.
- جمعة، يوسف (يناير: ١٩٩٠م) سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، (الكويت: عالم المعرفة).
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م)، الخصائص، ترجمة: الشربيني شريدة، القاهرة، دار الحديث.
- جورج، كلاس (١٩٨١م) الألسنية ولغة الطفل العربي، ط٢، بيروت، المنشورات الجامعية.
- الجيلاني بن فريجة أبو إلياس (٢٠١٥م) لغة الطفل ما قبل المدرسة بين الاكتساب والتواصل "مقاربة لسانية" (عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع).

- خليل، حلمي (١٤٠٢هـ- ٢٠٠٠م) في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية.
- الخولي، محمد علي (١٩٩٣م) مدخل إلى علم اللغة، دار الفلاح للنشر والتوزيع.
- دوجلاس، براون (١٩٩٤م) أسس تعلم اللغة وتعليمها، ترجمة: عبده الراجحي، علي شعبان، بيروت، دار النهضة العربية.
- ديكرو، أوزوالد، سشايفر، جان ماري (٢٠١٣م) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي، ط٣، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
- رزق، سامي (١٠/ يناير: ١٩٩٦م) اكتساب الطفل للغة الأم من منظور اللسانيات الحديثة، مكتبة القاهرة الكبرى.
- الزغلول، رافع النصير، الزغلول عماد عبد الرحيم (ب. ت) علم النفس المعرفي، الشروق.
- زكريا، ميشال زكريا (يناير: ١٩٩٣م) قضايا ألسنية تطبيقية، دراسة لغوية اجتماعية نفسية مع مقاربة تراثية، دار العلم للملايين.
- سرحان: المنجي (ب. ت) اللغة عند الطفل تطورها ومشكلاتها، عالم الكتاب، العدد ٣٦، ٨٨.
- سكوفل، توماس (١٤٢٤م) علم اللغة النفسي، ترجمة: عبد الرحمن العبدان، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية.
- سلامة، سهير محمد (٢٠٠٦م) علم نفس اللغة، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق.
- الصالح، خلود (٢٠١٦م) اللسانيات النفسية بين التأسيس والمستقبل: دراسة في اكتساب اللغة الأولى، مجلة التواصل: مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باجي مختار- عنابة.
- العتوم، عدنان يوسف العتوم (١٤٢٥هـ-٠ ٢٠٠٤م) علم النفس المعرفي، النظرية والتطبيق، عمّان، دار المسيرة.

- طعيمة، رشدي أحمد (١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م) المهارات اللغوية، مستوياتها، تدريسها، صعوباتها، دار الفكر العربي.
- العصيلي، عبد العزيز (١٤٢٧هـ) علم اللغة النفسي، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية.
- علاق، يحي (٢٠١٠م- ٢٠١١م) أهمية السماع في اكتساب اللغة وفي تعلمها قبل التمدرس، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- غلفان، مصطفى (٢٠٠٨م) في اللسانيات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتاب الجديدة المتحدة.
- فاخوري، عادل (١٩٨٨م)، اللسانية التوليدية والتحويلية، ط٢، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر).
- الفراع، سعيد (ب. ت) الطفل واكتساب اللغة بين البنائية والتوليدية، مجلة رؤى التربوية، العددان ٤٤- ٤٥.
- ليونز، جون (١٩٨٧م) اللغة وعلم اللغة، ترجمة: مصطفى التوني، القاهرة، دار النهضة العربية.
- الموسوعة الحرة، ويكبيديا: متاح على الشبكة العنكبوتية. (تاريخ اكتساب اللغة) موقع: .https://ar.wikipedia.org/wiki .

٢- المراجع الأجنبية:

- Chomsky Noam (1965), Aspects of The Theory of Syntax, the Massachusetts Institute of Technology.
- A. Harley, Trevor, (2001), The Psychology of Language From Data to Theory, Second Edition Psychology press Ltd.